

فلسفة من الصين

كتاب ألفه الفيلسوف الصينى الكبير «لين يوتانغ».

كتاب ترجم إلى أكثر من لغة وطبع فى الانجليزية وحدها سبع عشرة طبعة.

والكتاب يتكلم عن «اليقظة» فى محاولة لفهم الحياة

وعن : «انواع من النظر الى الجنس البشرى

وعن : «تراثنا الحيوانى» وملحمة القرد

وعن: الفضول المرح ونشأة الحضارة الإنسانية

وعن: «عيد الحياة ومشكلة السعادة

ويتساءل فى صفحات طويلة:

من الذى يستمتع بالحياة أحسن استمتاع؟

ويستهل المؤلف، كتابه بالحديث عن «المثالية» و «الواقعية» ويتطرق من هذا إلى الحديث عن

«روح الدعابة» التى يعتبرها، موهبة عظيمة.. إنها عنده «ترياق».

يبدو أن روح الدعابة وثيقة الاتصال بحس الواقع، أو الواقعية.. ولئن كان الناقد الساخر

قاسيا فى نزع الغشاوة عن عيى المثالى، إنه مع ذلك ليقوم هناك بمهمة أساسية جدا إذ يمنع المثالى

من أن يحطم رأسه على حائط الواقع المشيد بجندل. ليس هذا فحسب بل إنه يخفف، فى رفق

بالغ، من توتر المتحمس الذى يغلى رأسه كالكوز، ويمد فى عمره. إنه يعده لاكتشاف الحقيقة التى

حجبها الأوهام عن ناظره، وبذلك يخفف عنه ألم الصدمة الأخيرة، لأن المداعب الساخر أشبه ما

يكون برجل يعهد إليه فى حمل نبأ من الأنباء السيئة إلى رجل مشرف على الموت.. فقد يكون فى

حسن تأتى صاحب الدعابة ما يحفظ على المريض حياته. وإذا لم يكن بد، من أن تسير المثالية

وخيبة الأمل جنباً إلى جنب فى هذا العالم فيستعين علينا أن نقول إن الحياة قاسية إلى حد

الوحشية!).

والفيلسوف الصيني «لين يوتانغ» عنده أن اليابانيين والألمان متشابهون إلى حد بعيد في فقدان روح الدعابة ومع ذلك فمن المتعذر، كما يقول، أن نعطي صفرا لأى خاصية من الخصائص عند أمة من الأمم، حتى ولو كانت هذه الخاصية هي المثالية في الشعب الصيني والمسألة كلها مسألة نسبة.. والزعم بأن هذه الصفة أو تلك منعدمة عند شعب ما، ليس يقوم على معرفة وثيقة بذلك الشعب. من أجل ذلك أعطيت اليابانيين والألمان، واحدا، في روح الدعابة بدلا من صفر وإنى لأحس إحساسا باطنيا أنى على صواب.

ترى هل يريد أن يقول إن هذا سبب اندلاع حرب بين عالميتين من المانيا فى ربع قرن؟
والفيلسوف الصيني فى كتابه يفضل العقل المتوسط الذكاء على العقل الذكى اللماح النافذ كالشعاع.

يبدو أنه صديق شاعرنا العربى الذى قال:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
وقد تقول: لعل العقل البشرى هو أنبل نتاج تمخضت عنه الخليقة. وذلك قول جدير بأن يسلم به سواد الناس وخاصة حين يشير إلى عقل كعقل البرت اينشتين او اديسون أو عقول اولئك العلماء الفيزيائيين الذين يستطيعون أن يقسوا أشعة نجم مقبل أو نجم مدبر، وأن يخضعوا الذرات غير المنظورة لسلطانهم، أو حين يشير إلى عقل كعقل ذلك العبقري الذى اخترع «الكاميرا» الخاصة بتصوير الأفلام السينمائية بالألوان الطبيعية.. والحق اننا اذا قارنا أمثال هذه العقول بفضول القردة المتحير المتلمس، الذى لا هدف له ولا غاية، تحتم علينا أن نقر بأن لنا عقلا نبيلًا مجيدا يستطيع أن يفهم الكون الذى ولدنا فيه.

هنا يقول: بيد أن العقل المتوسط فاتن أكثر منه نبيلًا:

وعندى أن الخطأ الذى يكون المرء على مثل اليقين من تطبيقها بحذافيرها خلية بأن تفقد متعتها من اول الطريق.. فالقائد الذى يسير إلى ميدان القتال وهو واثق من انتصاره على العدو وثوقا كاملا، وقادر على أن يتنبأ بعدد الضحايا التى سيتمخض عنها القتال، يرجح أن يفقد شوقه إلى المعركة، بالكلية، وقد ينفذ يده من هذه المهمة كلها. وليس يلعب أحد الشطرنج إذا ما علم أن عقل خصمه لا يتطرق اليه، الخطأ.

أعطني مجتمعا حسن التنظيم حقا، ولكن لا تعطني مجتمعا مبالغاً في حسن تنظيمه.. وهنا يحضرني مثل النمل الذي يؤلف أو يكاد يكون أكثر الكائنات عقلانية على وجه الأرض. فليس من ريب في أن هذه الجماعة قد وفقت الى إنشاء دولة اشتراكية كاملة إلى درجة ساعدتها على أن تعيش، على هذا المنوال، طوال المليون سنة الأخيرة، في أغلب الظن. وعندى أنه يتعين علينا أن نتخلى عن عقلانية السلوك الكاملة لجماعة النمل، وأن ندع الكائنات البشرية تأتي في المرتبة الثانية (وإنى لأشك كثيرا في ما اذا كانت هذه الكائنات تستحق ذلك). فالواقع أن جماعة النمل تتألف على عكسنا من كائنات منظمة أحسن التنظيم وأصرمه من الناحيتين الاجتماعية والفردية. إنها لا ترى بأسا في أن تعمل أربع عشرة ساعة، كل يوم من أجل الدولة والمجتمع، وإنها لتتصف بالثبات، والنظام، واللطف، والشجاعة، وتمتيز فوق ذلك كله بالضبط الذاتي. أما نحن فلا نؤلف غير نماذج رديئة من الضبط الذاتي، رديئة بشكل فاضح.

ويمعن في السخرية إذ يقول: طف بقاعة من قاعات الشرف تتزاحم في رواقها تماثيل عظماء التاريخ؛ تجد عقلانية السلوك آخر شيء يمكن أن تثله حياتهم فهذا يوليوس قيصر الذي وقع في حب كليوباتره - يوليوس النبل الذي كاد ينسى (كما قد نسي انطونيوس بالكلية) امبراطورية من أجلها..

وهذا الملك داود الذي كان وحثيا حينا، كريما حينا، والذي كان يعبد الله ثم يتردى في الآثام ويكتب مزامير التوبة ويعود إلى عبادة الله من جديد.

وهذا كونفوشيوس الذي قال لأحد زائريه إنه خارج البيت، حتى إذا بعد الزائر عن الباب بعض الشيء، أنشأ يغنى لكي يعلمه أنه موجود في بيته..

وهذا «جونانان سوفت» و«ستيل» و«إيسن» و«اميلي بالرداخ»

والانجليز يقدمون لنا مثلا بارزا على العقل السليم.. ذلك بأن هؤلاء القوم أصحاب منطق ردىء، ولكن لهم ملامس في ادمغتهم لتحس الخطر والمحافظة على الحياة.. والحق أن قوة الامبراطورية البريطانية لتقوم على انعدام التفكير عند الانجليز وعلى عجزهم الكلى عن رؤية وجهة نظر الشخص الآخر، وإيمانهم القوى بأن الطريقة الانجليزية هي وحدها الطريقة الصحيحة، وأن الطعام الانجليزي هو وحده الطعام الصالح..

إن للانجليز بشرة حمراء خلعها عليهم، من غير ريب ضباب لندن ولعبة الكريكت.. ومثل هذا الجلد الناضح صحة لا يستطيع إلا أن يلعب دورا في تفكيرهم، يعنى فى عملية تحسهم الطريق التى ينبغى أن يسلكوها فى الحياة.

وكما يفكر الانجليز بواسطة جلدهم الذى ينضح صحة، كذلك يفكر أهل الصين بواسطة أمعائهم. وتلك حقيقة مقررة فى الصين فنحن الصينيين نعلم علم اليقين أننا نفكر عن طريق أمعائنا. فنزعم أن لفلان «ملء جوف من الأفكار» أو «من الشعر والأدب» ونقول «ملء جوف من الأسى» أو «من الغضب» أو «من الشوق». والعشاق الصينيون الذين تفرق ما بينهم الايام يدبجون الرسائل الغرامية قائلين: «ان الفراق قصم أحشاءهم».

وليس معنى هذا أنه ينتقص من مقدرة العقل الانسانى فى ميدان الكون الطبيعى، وفى كل ميدان آخر خلا العلاقات الإنسانية فمن الجائز أن يكون البشر قد بلغوا، بوصفهم أفرادا، مرتبة عالية من الرقى، ولكن البشر لا يزالون بوصفهم مجموعات اجتماعية، خاضعين لشهوات وانفعالات بدائية، وردات عارضة للغرائز الوحشية، وموجات طارئة من التعصب وهستريا الجماعة.

وهنا يأتى دور تراثنا الحيوانى.. فإن معرفتنا بأننا أقرب ما نكون إلى البهائم قد يساعدنا على أن نكبح من جماع سلوكنا على طريقة البهائم. وتراثنا الحيوانى هذا يجعل من اليسير علينا أن نرى أنفسنا على حقيقتها فى الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوان، كأمثال إيزوب، وبرلمان الدجاج لتشوسر chauser ورحلات جلفر سويفت Swift وجزيرة البنجوين لأناتول فرانس.

لقد كانت هذه القصص صالحة فى عهد ايزوب، ولسوف تظل صالحة أيضا فى سنة ٤٠٠٠ بعد الميلاد!

إنه كما يبدو يمقت الغرور والتعالى والادعاء.

والحل عنده أن تثقيف حواسنا وعواطفنا أكبر أهمية وأعظم خطرا من تثقيف أفكارنا.

لقد اخترع الإنسان حضارة وليس هذا بالشىء القليل وقد يكون ثمة حيوانات أجمل من الانسان وأحسن شكلا وأنبل تكوينا، كالفرس مثلا، وحيوانات أقوى عضلات منه كالأسد، أو

أقدر على الشم وأكثر انقيادا ووفاء كالكلب، أو أحد بصرا، كالنسر، أو أقدر على الضبط الذاتي والعمل الشاق، كالنملة، أو أرق طبعاً وأرضى خلقاً كالحمائم أو الطيور، أو أكثر قناعة وصبراً كالبقرة أو أعذب صوتاً كالبلبل أو أجمل ثوباً كالبيغاء أو الطاووس، ومع ذلك فإن في القرد شيئاً أو ثره على جميع هذه الحيوانات.. وإن في الإنسان شيئاً من فضول القرد وبراعته يجعلني أفضل أن أكون إنساناً.. صحيح أن النمل أحسن تنظيمًا من بني الإنسان، كما سلف مني القول، وأن لها حكومة أكثر استقراراً من بعض حكوماتنا اليوم، ولكن هل عند جماعة النمل، مكتبة أو متحف؟ لا.

وحالما تخترع النملة أو الفيل، مرصداً عملاقاً، أو تكتشف نجماً جديداً، أو تتنبأ بحدوث كسوف شمسي أراني مستعداً لأن أقر لأى منهما بزعامة العالم والسيادة على المخلوقات.. أجل في ميسورنا أن نفخر بأنفسنا، ولكن من الخير أن نعرف ما الذي ينبغي لنا الافتخار، به وبكلمة أخرى، أن ندرك جوهر الكرامة الإنسانية.

وعند الفيلسوف الصيني الكبير أن: الفضول المرح، هو السبب في نشأة الحضارة الإنسانية.. السبب فضول الإنسان المرح في محاولاته الأولى تلمس الأشياء بيديه وتقليبه إياها ظهراً لبطن ابتغاء فحصها ودرسها، كما يقلب القرد في ساعات فراغه جفن قرد آخر أو شحمة أذنه بحثاً عن القمل أو رغبة في قلب الجفن أو شحمة الأذن من أجل القلب ليس غير. اذهب الى حديقة الحيوانات وراقب قردين يعالج كل منهما أذن الآخر، تجد في برديهما نواة لعالم كاسحق نيوتن أو البرت آيشتاين!!

وهذا التصوير لنشاط اليد البشرية المتلمسة المكتشفة ليس كلاماً مرسلاً على عواهنه.. انه حقيقة علمية.. فاساس الحضارة الإنسانية نفسه انما بدأ عندما تحررت يدا الانسان نتيجة اصطناعه وضعاً منتصباً وصيرورته ذا رجلين اثنتين.. ومثل هذا الفضول المرح يمكن أن نشاهده حتى في القطط حالما تتحرر قوائمها الامامية من مهمة السير والتهوض بعبء الجسم.. وقد كان من السير على القطط أن تنشئ حضارة ما، شأن القردة، لولا هذه الحقيقة، وهى أن أصابع القردة كانت تطورت تطوراً حسناً من طريق ضم الأغصان بعضها الى بعض، فى حين أن برائن القطرة برائن، أى مجرد كتلة من اللحم والغضاريف.

ولأنس لحظة قصيرة أنني لست عالما بيولوجيا ولأطلق لتأملاتي العنان حول نشوء الحضارة الإنسانية من تحرر اليدين هذا، لأن لدى بعض الملاحظات التي أحب أن أبسطها، والتي قد تكون فانت غيرى من الباحثين فى هذا الموضوع، فالحق أن اصطناع القامة المنتصبة وما عقبه من تحرر اليد كانت له نتائج بعيدة الأثر.. فقد أدى ذلك إلى استعمال الأدوات، وإلى الحياء واخضاع النساء، ونشأة اللغة، وتعظيم الفضول المرح وغريزة الكشف عند الإنسان.

وفى رأى الفيلسوف الصينى أن تحرر اليد، أحدث انقلابا فى التعبير عن الحب.

ذلك بأن التقبيل كان لايزال غير سائغ ولا ناجح على ما نرى حين يقبل فرد من نوع الشيمبانزى فردا آخر، بفكيه الغليظتين، المصنفين، الناتيتين فأنشأت اليد حركات جديدة أرق وأنعم هى التريبت، والمداعبة والعناق وكلها ثمرات عارضة لمحاولة الرجل اقتناص القمل السارى على جسم المرأة ومحاولة المرأة اقتناص القمل السارح على جسم الرجل.. ولست أشك فى أن الشعر الغنائى ما كان يمكن أن ينشأ لو كان أجدادنا الشعر، خالين من القمل وأضرابه..!

ومن تصيد القمل هذا نشأت روح البحث الحر فى سبيل المعرفة!!

ومن تعليقاته الطريفة أن ذراع الرجل كانت أقوى على ما يبدو ولم يكن ثمة سبيل إلى مقاتلته، واذن فلماذا لا تلجأ المرأة إلى رشوته ومداهنته وارضائه؟ وتلك هى الصفة الحقيقية التى تطبع حضارتنا حتى فى يوم الناس هذا.. فبدلا من أن تتعلم المرأة كيف تقاوم وتهاجم، تعلمت كيف تفتن وتجذب، وبدلا من أن تسعى إلى بلوغ أهدافها بالقوة، عمدت إلى تحقيقها بأساليب أرق.. والرقعة، بعد، هى الحضارة.

وبمثل هذه الطرافة والفكاهة، يعلل الفيلسوف الصينى، نشأة اللغة.

يقول: أنا أزعم، أيضا، أن المرأة لعبت دورا أعظم من دور الرجل فى انشاء الثروة، التى نطلق عليها اليوم لفظ اللغة.

والواقع أن غريزة الثروة عميقة الجذور عند النساء إلى درجة تحملنى على الاعتقاد بأنهن ساعدن على خلق اللغة الإنسانية بأكثر مما ساعد الرجال.

والذى يخيل الى أن أسلافنا كانوا كائنات عابسة صامتة، وأن اللغة البشرية بدأت عندما كان الذكور من القرود الشبيهة بالإنسان قد خرجوا للقمص بعيدا عن كهوفهم، وانبرت امرأتان جارتان

للبحث امام كهفيهما، فى أى أفضل زيد أم عمرو، وكيف أن عمرا كان شديد الكلف بصاحبه فى الليلة الماضية فهو يستغضب فى سهولة ويسر.. على مثل هذه الشاكلة، بدأت اللغة البشرية.. وليس يمكن أن تكون بدايتها على صورة أخرى.

والفيلسوف الصينى، يعلل نشأة الفلسفة، والمهدة عليه، من صفتين عند الإنسان

- روح الضجر والاستياء

- قدرته على التخيل وصياغة الأحلام

وفى محاولة تبرير أو تأكيد أو إثبات يقول:

الواقع أن القرد كان أول حيوان عبوس، فأنا لم أشهد فى الحيوانات وجهها كثيبا حقا غير وجه الشمبانزى.. وكثيرا ما خطر لى أن الشمبانزى لابد أن يكون فيلسوفا، لأن الحزن والتفكير ابنا عمومة، وأنا أقرأ فى وجهه ما يؤذن بأنه يفكر ويقدر. إن البقرة لا تعرف التفكير، أو قل إنها لا تبدو وكأنها تفلسف، لأن مسحة من الرضا تطفو على وجهها أبدا. والفيل قد يعصف به غضب مروع، ولكن تذبذب خرطومه تذبذبا دائما، يحول، فى ما يبدو، بينه وبين التفكير، ويرد عنه عادة الأسى والاستياء.. أما القرد فهو الحيوان الوحيد الذى تقرأ فى أسارير وجهه معانى فى التبرم بالحياة.. وليس سن ريب فى أن هذا الحيوان عظيم حقا.

ولعل الفلسفة بدأت، أول ما بدأت، مع روح الضجر، والاستياء.. ومن خصائص البشر، على أية حال، الحزن والغموض، والتوق الدائب إلى مثل أعلى.. ذلك أن الإنسان، على الرغم من عيشه فى عالم واقعى، نزاع إلى أن يحلم بعالم آخر.. ولعل الفرق بين الانسان والقردة هو أن القردة يعترىها السأم ولاشئ وراء السأم، فى حين أن الإنسان يجمع إلى السأم والضجر خيالا. فنحن جميعا نرغب فى الخروج من الحجر القديم، ونحن جميعا نود أن نكون غير ما نحن، ونحن جميعا تراودنا أحلام عريضة.

وكلما قويت موهبة الخيال عند المرء، ازدادت همومه وتعاضم استياؤه. وهذا هو السبب الذى من أجله يبدو الطفل الخيالى مرير العود، صعب المراس فهو أميل إلى الحزن والعبوس، شأن القرد، منه الى الهناء والرضا، شأن البقرة.

والحلم نعمة حين يكون ارهاصا لشيء كبير، فقد حلم توماس اديسون وحلم روبرت لويس ستيفنسون وحلم السير ولتر سكوت.. اولئك الثلاثة جميعا حلموا فى طفولتهم احلاما.. ومن

مادة هذه الأحلام الذهبية وأمثالها نسجت مجموعة من أجمل الطرف التي عرفت البشرية وأروعها.

والفيلسوف الصينى يكبر من شأن الدعابة والظرف.. فعنده أن الناس الذين لا يقدرّون الدعابة والظرف حق قدرهما، ولا يدركون اثرهما فى تغيير وجه الحياة الثقافية كلها.. ولما كانت وظيفة الدعابة كيميائية أكثر منها فيزيائية، فانها تغير النسيج الاساسى لتفكيرنا وخبرتنا.

وهنا نأتى إلى الجدد.. إن الفيلسوف الصينى يقول إن من أخطر الخطر أن يكون حكامنا غير قادرين على الابتسام.

لأن هؤلاء الحكام هم الذين يسيطرون على السلاح كله.. ومن ناحية ثانية، فإن أهمية الدعابة البالغة فى دنيا السياسة لا يمكن أن تدرك إلا اذا تخيلنا عالما يتولى مقاليد نفرة من عباقرة الظرف والدعابة..

- وهنا يقترح وأنا أؤيده:

أرسل، مثلا، خمسة أو ستة من أبرع الرجال فى هذا الميدان إلى مؤتمر دولى وزودهم بصلاحيات مطلقة كصلاحيات الحاكمين بأمرهم، نجد العالم قد نجا من خطر الحرب ورزاياها.

ويستطرد الفيلسوف الصينى فى حماس قائلًا: وإذا كانت الدعابة تجرى ضرورة مع قوة الادراك والروح المنطقية بالإضافة الى ضرب من القوة العقلية النادرة على تحرى وجوه التناقض والحقائق والمنطق السقيم، وإذا كان ذلك أسمى أشكال الذكاء ففى ميسورنا أن نثق بأن كل أمة ستكون مثلة على هذه الشاكلة بأحسن عقل فيها، فى ذلك المؤتمر.

وهو يؤمن بأن الدعابة قادرة على تغيير طابع تفكيرنا وصفته العامة وأنها قادرة على الامتداد بعيدا إلى جذور الثقافة نفسها ويمهد السبيل لبزوغ فجر عصر جديد تسود فيه الناس روح الاعتدال، وتهيمن عليهم قوة الادراك والتفكير السهل، والمزاج المطمئن، والاستشراف المثقف.. ذلك بأن العالم المثالى لن يكون عالما عقلانيا، ولا عالما كاملا بأى معنى من المعانى، ولكن عالما تدرك فيه نواحي الضعف فى يسر وسهولة، وتسوى فيه المنازعات فى دراية وتعقل.

وهو يؤمن بأن العذوبة والظروف قمة من قمم البساطة وأن بساطة العيش والفكر أسمى وأسلم مثل أعلى للحضارة والثقافة.. وبأنه حين تفقد الحضارة، صفة البساطة تأخذ سبيلها إلى

التفسخ والانحلال، وعندئذ يصبح الانسان عبدا رقيقا للمطامح والنظم الاجتماعية التي انتجها هو بنفسه.

والواقع أن البساطة آية على عمق التفكير ورمز له. ويبدو أنها من أعسر المطالب في التعليم والكتابة.

إن البساطة ايدان بالنضج والدليل أننا كلما تقدمنا في السن أصبحت فكرتنا أوضح، واتخذت معانينا أشكالا أكثر تحديدا وبلغنا إشراق المعرفة الحقيقي الذي ندعوه الحكمة.

إن الإنسان العذب الرضى الظريف أكثر اتصالا بالوقائع والحقائق في حين أن الإنسان النظري أشد انصرافا إلى المناقشة والجدل.

الظريف أكثر توثبا ورشاقة وفطنة فهو في نجوة من مختلف ضروب التمهل المصطنع والتمويه الكاذب، واللغو الثقافي والبلاهة الأكاديمية، والخداع الاجتماعي.

سؤال:

كيف نستطيع أن نعمل في سلام، ونصبر في نبل، ونعيش في سعادة؟ من نحن؟ بعبارة أخرى

سؤال يكاد يكون من المتعذر، الإجابة عنه..

ولكننا متفقون جميعا على أن تلك الذات المنهمكة في ضروب النشاط اليومي ليست هي ذاتنا الحقيقية.. إننا على أتم اليقين من أننا فقدنا شيئا بسبب السعى المجرد وراء الرزق.

وحين ننظر إلى رجل يركض لاهثا في أحد الحقول، يكون في استطاعة الحكيم أن يسأل النظارة: أى شيء أضاع ذلك الرجل؟ فيقول بعضهم إنه أضاع ساعة، ويذهب آخرون إلى أنه أضاع حلية من الماس، ويزعم غيرهم غير ذلك حتى إذا أخفقوا جميعا في الإجابة عن السؤال، التفت إليهم الحكيم وقال «اليكم الجواب عن سؤالي ذلك: لقد أضاع الرجل بعض أنفاسه!

وهنا نفهم القول: (إن الخسارة دائما تتبع السعى في سبيل الربح)

ويل للمدينة الاصطناعية لقد عدت على القلب النضر المولود مع الإنسان اعتداء كأثر الفأس في الغياض والغابات.

ينتقل الفيلسوف الصينى إلى الحديث عن الخوف إن بعض الناس استطاع أن يتحرر من خوف الموت ولكنه لم يسطع أن يتحرر من خوف آخر أشد ذبوعا وانتشارا.. ذلك هو خوف المرء من جيرانه.. أى الخوف من الإنسان.

إننا جميعا ممثلون فى هذه الحياة.

وهذه الموهبة المسرحية، مضافا إليها موهبة التقليد التى هى جزء منها، هما أبرز خصائص وراثتنا القروية.

ولهذه النزعة كما يقول ساخرا محاسن لا تنكر أبرزها تصفيق النظارة.

إن غريزتنا المسرحية عميقة الجذور إلى حد يجعلنا ننسى، فى كثير من الأحيان، أن لنا حياة حقيقية يجب أن نعيشها خارج المسرح وهكذا ترانا نكد ونجهد ونحيا حياتنا، لا من أجل أنفسنا ووفقا لغرائزنا الحقيقية، ولكن رغبة منا فى انتزاع موافقة المجتمع شأن (العوانس اللواتى يصنعن بأبرهن ثياب الزفاف لغيرهن من النساء) كما يقول المثل الصينى.

والاعتراض الوحيد، عنده، على موهبة التمثيل الجماعية، هو أن الممثل قد يحل محل الإنسان ويستحوذ عليه استحوادا كاملا.. ولكن العالم لا يخلو من بضع نفوس مختارة تستطيع أن ترتدى ثوب الشهرة والمنصب الرفيع بابتسامة رقيقة وتظل هى هى فلا زهو ولا غرور ولا بطر.. أولئك هم الذين يذكرون حين يمثلون أدوارهم أنهم ليسوا غير ممثلين والذين لا تخدعهم عن أنفسهم أوهام المنصب أو اللقب أو الثروة، والذين يتقبلون هذه كلها إذا ما اعترضت سبيلهم بابتسامة راضية رضيه، ولكنهم يرفضون أن يؤمنوا أنهم قد غدوا بسبب من ذلك ناسا غير الناس أو ناسا فوق الناس. وهذا الصنف من الرجال، ذوى الروح العظيمة حقا، هو الذى يحتفظ أفراداه بطابع البساطة فى حياتهم الشخصية.. من هنا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن البساطة هى آية العظيم فى كل زمان ومكان.

وفى الكتاب حديث عميق عن رموز جميلة رائعة.. منها: «الماء» رمز القوة التى يتمتع بها الضعيف.. الماء الذى ينسكب فى رفق ولطف فيحدث ثقويا فى صخرة عاتية..

«الوادى» رمز يمثل رحم الأشياء كلها وأما إنه يمثل الأنثى.

إن روح الوادى لا تموت أبدا

وهى تدعى الانثى العجيبة

وإن مجاز هذه الانثى العجيبة

هو الأصل الذى انبثقت منه الارض والسماء.

إنها هناك، فى ذواتنا أبدا،

فانهل من معينها ما شئت

فهى لن تعرف النفاذ.

وليس من التكليف البعيد، بحال من الأحوال، أن نزعّم أن الحضارة الشرقية تمثل المبدأ المؤنث.. وأن الحضارة الغربية تمثل المبدأ المذكر

أقول ولهذا يعتقد الفرنسيون أن كل فنان رجلا او امرأة بداخله أنثى ومن هنا يكون عطاؤه ثرا لا ينضب.

وعند الفيلسوف الصينى، من الحقائق المقررة أن المخبولين يتمتعون بشعبية واسعة. وليس من ريب عنده ان الناس سواء أكانوا من أهل الشرق أو من أهل الغرب، يكرهون الرجل البالغ الذكاء فى تعامله مع زملائه ورفاقه

أقول الانجليز فى هذا الصدد، يقولون

He is too clever to be trusted.

يقول الفيلسوف الصينى «اننا نحب الخادم الأبله لأنه أجدر بثقتنا، ولأن فى استطاعتنا أن نستمتع بحريتنا، فى حضرته استمتعا أكثر وفى غير تحرز واحتياط.. وأولو الحكمه من الرجال، أو كثرتهم الكبيرة، لا يختارون شريكات حياتهم من بين النساء البارعات الذكاء، والكثرة الكبيرة من النساء الحكيمات لا يخترن ازواجهن من بين أصحاب الذكاء اللامع بأكثر مما ينبغى».

أنا لا أوافق على «التقية» فى الزواج أو البعد عن الذكاء فالذكاء نعمة يطوى المسافات.. الذكاء شعاع ينفذ إلى النفس ويضىء جوانبها.. الذكاء لمعة فى العين ونور الابتسامه، و «ضىء

يعطى، الروح، وسامه.. هذا إذا توفر بين اثنين بدرجة سواء أو حتى متقاربة.. هنا يغدو، الذكاء هناء متبادلة وعالما رقيقا وعميقا في وقت واحد.

ويعود الفيلسوف مرة أخرى إلى «البساطة» أثيرته المفضلة فيرى «الخطاب» سيد الروابي الخضراء، و «الصيد» سيد المياه الزرقاء مع أن الروابي الخضراء ما تنفك ناضرة، والمياه الزرقاء تجرى لمستقر لها لمجرد الرغبة في امتاع نفسها.

ومن الطريف - ما أكثر الطرائف في هذا الكتاب - حديث الفيلسوف المؤلف عن «الوان السعادة عند الآخرين فالكتاب الأمريكي «ثورو Thoreau» كان يراها في الاستماع إلى موسيقى الصراصير.. وعنده أسباب فالصراصير كما يقول لم تتجرع من ضروب الخمير غير الندى.. فليست أناشيدها نفثات حب زائلة تخمد بانقضاء فضل لتتحي مكانا بعيدا عن ثورة الفصول.. وإن نغمتها لواحدة، كالحقيقة، لا تتغير.. وليس يسمع الناس غناء الصراصير إلا حين يكونون في لحظاتهم الأكثر حصافة ورجاجة عقل.

أما «هويتمان» فقد التقت عنده حواس البصر والسمع والشم في قمة وهو يصف عاصفة ثلجية..

لم تكن ثمة رياح، ومع ذلك فإن الهمهمة الموسيقية الخافتة المنبثقة من خلال أغصان الصنوبر، كانت تسكن حينا وتندفع حينا.. إن الحواس كلها لتستمتع بهذا المشهد، حتى حاسة الشم.. فقد غطى الثلج الأرض والنباتات الدائمة الاخضرار وشجيرات الغار وصفوف الصنوبر الطويلة المستقيمة المثقلة بأحمالها، وفاحت مع ريا الثلج رائحة راتنجية خفيفة... ذلك بأن ثمة عبيرا لكل شىء، حتى للثلج، شرط أن تكون لك القدرة على تحريره. وهذا العبير نفسه يتفاوت بتفاوت الزمان والمكان.. فما أعظم الفرق بين عبير الظهيرة وعبير منتصف الليل، أو ما بين عبير الشتاء وعبير الصيف، أو ما بين عبير العمل حيث تعصف الرياح الهوج، وعبير العمل حيث يجرى النسيم رفاء لا يحرك شيئا!!.

ويعزو الفيلسوف المؤلف، رهافة هويتمان إلى العيش في الريف الذى يتيح لهذه الفروق الرفيعة في البصر والشم والسمع أن تظهر وتحس بينما تضيع في حياة المدن في رتابة الجدران الرمادية والمماشى الأسمتية.

ومن السعادة عنده أن يفتح بطيخه حمراء ناضجة ذات أصيل من أصائل الصيف. ويهتف كالطفل أليست هذه سعادة؟

الحقيقة إننى أوافقه فأنا أحب البطيخ جدا فى الصيف ربما أيضا لأننى أهلاوية أحب اللون الأحمر فى البطيخ والتفاح والورد وشمس الأصيل على صفحة النيل «أرجوانيه ذهبية معا ومن السعادة عنده أن يعود رحالة إلى وطنه بعد غيبة طويلة، فيرى إلى باب المدينة العتيق، ويسمع إلى النساء والأطفال يتحدثون، على ضفتى النهر، بلهجته أو بلغته. ويهتف مرة أخرى: أليست هذه سعادة؟

أن تفتح النافذة لتيسر لنملة ما سبيل الخروج من الغرفة.. آه، أليست هذه سعادة؟
وهنا يذكرنى بشاعرنا أبى العلاء المعرى فى بيتيه:

أبر من درهم تعطيه محتاجا	تسريح كفك برغوثا ظفرت به
عزيزة ويروم العيش مهتاجا	كلاهما يتوقى والحياه له

إن الاستمتاع بالحياة استمتعا يشع السعادة يتمثل فى أشياء كثيرة ملك أيدينا قد يغفل عنها عباد المال مع أن هذه الأشياء يعجز مال الأرض عن شرائها أقصد شراء القدرة على تذوقها الأشجار.. الأزهار.. والسحب والأنهار والشلالات وبدائع الطبيعة وروائع الكون.

الفن - الشعر.. الأدب بحلاه ورؤاه.. التأمل.. الصداقة والحديث والقراءة.. ابتسامة طفل.. دمة مسافر لقاء وطن بعد الغياب.. الشوق.. لآء صوت أم كلثوم.. يجمع الأرواح السفه النقية.. وهو يترقرق حيناً ويتدفق أنا.. نيلا مع النيل..

وبعد فإن كتاب هذا الفيلسوف الصينى نحن بحاجة إلى قراءته فى ركाम الهموم التى نعيش فيها لأنه سلسلة متصلة من الضحك المتفلسف أو الفلسفة الضاحكة.. المرحه.. الساخرة.
إنه جديد طريف يجلو الصدا ويصالح المجهود والمكدود مع الحياة.